

# المعلم الإلزامي

مجاهد صغير

للاستاذ محمد أبو بكر إبراهيم

المعتمد بوزارة المعارف

لولا الألم ما شكا الشاكون ولا بكى الباكون . ولولاه كذلك ما عمل العاملون ولا سعى الساعون . لأنه — مع خفائه — قوة ترسل تياراتها الخفية فيتولد منها النشاط والحركة والحياة .

شعر بهذا الألم المعلمون الإلزاميون فعملوا مجاهدين ، وأحسوا بونزخه فتنهوا محاربين . ذلك لأنهم آمنوا بأن الأمية من الأمراض الاجتماعية ، وأن الوطنية تقضى بحاربها في كل مكان — وإن طال الزمان — بخاهدوا متجمعين تحت سماء واحدة هي سماء الوطن ، وتحت راية واحدة هي راية الإلزام . قد تساووا جميعاً في المؤهلات والكفايات ، فكانوا كالخلفة المفرغة لا يدري أين طرفها : رئيسهم خادمهم ، وخادمهم رئيسهم ، يسعى بذمتهم أدانهم ، ويقوم بأمرهم أقنهم . هذا التماسك المتين ، بهذه الروابط القوية قد أنف بينهم وأكثر عددهم حتى بغوا عشرين ألفاً أو يزيدون ، يعملون ولا يتفنون من وراء عملهم إلا وجه الله ووجه الوطن : سواء أهبت ريح حاصب ، أم هب نسيم عليل . وسواء أمر سليم القرن — أم أمر أعضب . يعامون الصغار بلا كلال ولا ملال ، حتى بيع من أمرهم أن كلف الواحد منهم أربعين حصاة في الأسبوع فما ضاق صدره ، ولا ضعف إيمانه بعمله ، ولا يشت نفسه من رحمة الله ، ذلك لأن غاية التي يرمون إليها من وراء هذا الاحتمال غاية نبيلة تشرق عليهم بأوارها الساطعة ، فتجعلهم يستبينون بمصاعبها ومتاعبها ، وينسون أنواعها ولأوائها ، ويتسابقون زمراً إلى تحقيقها ، لأن في تحقيقها فوزاً لهم وانتصاراً ، إنهم يكونون من أجل إزالة حجب الجهالة والأمية ، ولا يكون الركك إلا بالتجملد والمجهود والعمل ؛ وهم مطمئنون إلى النجاح في النهاية فانه لا يضع أجر المحسنين .

غير أن كثرة الحصص — وإن تحملها المعلم الخمول — تعوقه من الناحية الفنية أن يعد دروسه إعداداً وافياً : طريقة ومادة وأسلوباً وتنظيلاً ، إذ لا يحد الفراغ الكافي لتفكير في العناصر وفي الوسائل الإيضاحية وفي الطرائق المختلفة التي يتخذها لتوصيل المعارف إلى عقول الأطفال وفي اللغة الواضحة التي يفهمها هؤلاء البدئون .

يظن بعض الجاهلين والمتجاهلين أن تعليم الأطفال أيسر مئونة ، وأسهل مسلكا وأقل إعدادا من تعليم الكبار ، بدعوى أن مناهجهم يسيرة ، لا تحتوى إلا مادة ضئيلة ولا تشمل إلا عناصر قليلة ، ونسوا أن للصغار طبائع وعقليات وأمزجة تخصهم ، وأنهم في بداية مرحلة لم يألفوها ، وفي قاعة طريق لم يعرفوها ، وأنهم منتقلون من حال ساذجة إلى حال تفاهيرها ، ومن بقعة في الحياة إلى بقعة تختلفها ، فتعليمهم أمر يتعسر مطلبه ويصعب ارتياده ، ويبعد التماسه ، ويزداد التباسه ، ويحتاج إلى مهارة فائقة في الإعداد وكياسة بارعة في الطرائق ، وتفرغ تام للوسائل .

أدرك هذه الصعوبة علماء النفس والتربية في العصر الحديث ، وفي العصور القريبة الماضية فأمرؤا باتخاذ الأهبة لملاقة الطفل الصغير بكل عدة وعتاد ، وأكثرؤا من مؤلفاتهم التي تكشف عن غرائز الطفولة ورغباتها وميولها واتجاهاتها وقوايتها ، وأطوارها ، وصوابها وخطئها ، ونموها وذبولها ، وسائر ما يتصل بها من دراسة طويلة توضحها ، وتمتد السبيل إلى التعرف بها ، والاستيلاء عليها ، حتى إذا ماجاء الوقت تهذيبها وتنويمها كان المعلم مقتدرا على تحويل الأساليب التي تقتضيها الحالة ، فيلتبس الموارد النافعة والوسائل المستطاعة .

ولست هذه المحاولات هينة المطلب ، ولا سهلة الانقياد . إنها تتطلب وقتا كافيا ، وصبرا جميلا ، وفراصة صادقة ، وجهودا كبيرة في استنباط الوسائل والوسائل ، واختيار الأسس والعناصر ، وترتيب المادة الدراسية ترتيبا منسقا . ومن أجل هذا كان الزمن القليل يضيق بالمعلم الإلزامي أن يقوم بمهمة التربية ثم قيام ، وأن يدير أمره أحكم تدبير لأن وقته كله مصروف في التدريس والإلقاء ولا يكاد يجد الفراغ للإعداد والاستعداد . ولكنه مجبر أن يتقلد الجدول بما فيه من حصص كثيرة دون أن يبدي اعتراضا أو امتناعا . ولما لم يبق من طاقته ، ولا من فسحة وقته إلا جانب يسير فهو يعمل بقدر ما يتسع له الزمن ، وتسمح به الطاقة خاشعا وخاضعا . وحسبه هذا إخلاصا ووفاء .

أما التدريس للكبار فأمره قريب المتجع حين المحاولة ، لأن قواهم الكافية قد برزت بالتجارب والمزاولة وبالدراسة التي عرفوها وبالشجاعة التي حلت في نفوسهم محل غريزة الخوف ، فيستطيعون النقاش والجدل والتعبير عما يحول بخواطرهم والإفصاح عن أغراضهم والسؤال عن غوامض المشاكل التي تعترضهم في تفهم المسائل ، ولهم من ماضيهم الطويل ومن علومهم الماضية ، ما يصبغ أن يكون مقدمة طيبة لما يليق عيهم من المعارف الجديدة المقررة في المناهج وغير المقررة .

بخلاف الصغار الذين تعوزهم اللغة للتعبير عما يحسونه ، وتعوزهم الشجاعة للتصريح بما يعقلونه ، ولهم غرائز كثيرة قد يصيبها الكبت في إبان ظهورها ، وقد تتخذ مجرى غير محمود

ولهم تفكير سطحي ضئيل لا يكاد يعينهم على استيعاب المعنويات وتحليلها وإدراكها إدراكاً حقاً ، فمعاملتهم تتطلب الحيلة والحذر أكثر مما تتطلبه معاملة الكبار .

يجد المعلم الإلزامى هذه النواحي المتشعبة ، وقد يعرف لكل ناحية علاجها وغذاها ، ولكنه لا يجد الوقت الذى يسعفه لاتخاذ العدة لكل أولئك . ثم يرى نفسه أمام صعوبة أخرى هى صعوبة المنهج وقد فرضت فيه بعض الموضوعات فرضاً ، حتى الموضوعات الإنشائية والإملائية بعنوانات خاصة ، وكثير منها بعيد المدى عن مدارك الأطفال . وليس المجال هنا بمتسع لنقد المنهج إنما سقت هذه الملاحظة توصلنا إلى أن المقرر فيه صعوبات لا مناص من تذليلها ، وعقبات لا مفر من اجتيازها .

وأشد من هذا وذلك صعوبة التهجي للبادئين وهى تحتاج إلى معالجة خاصة تجمع بين التشويق والإفادة فى أقصر وقت . وهذه المعالجة تستلزم تفكيراً طويلاً فى الطريقة والوسيلة واللغة ... أليست كثرة الحصص عائقاً للدرس عن كل هذا ؟

وكيف يدرس المواد المختلفة أو يتغلب على مشقتها من غير أن يستعين بوسائل الإيضاح ؟ إنه إذا لم يجد لها حاصرة لديه ، فطبعى أن يسوق أطفاله سوقاً إليها سالكاً بهم أوعر المسالك ، وأضيق المضائق ، ومن ثم كان التخفيف عن المدرسين فى حصصهم أمراً تقتضيه مصلحة التعليم ومصلحة المتعلمين .

وأعتقد أن التخفيف عنهم لا يجوز أن يحىء طفرة ، ولا دفعة واحدة ، بل على التدرج ورويدا رويدا ، ذلك بأن يكفى فى الوقت الحاضر بالمدارس الإلزامية الموجودة فعلاً ، فيقف تيار الزيادة المطردة فيها أمدا معلوماً ، ويوزع المدرسون الجدد الذين يعينون كل عام على المدارس الحالية ، ليقوموا بأنصبتهم تخفيفاً عن المدرسين القدامى الحاليين . وتسيرا ل حال على هذا المتوال مدة من الزمن حتى يتعادل مدرس التعليم الإلزامى بزميله مدرس المدارس الأولية فى عدد الحصص الأسبوعية ، أو يقرب كل من الآخر فتكون الحصص كل أسبوع ستاً وثلاثين حصّة أو أقل من ذلك إلى أن تكون اثنين وثلاثين .

فإن العدالة تقضى بالمساواة بين الفريقين فى العمل مادام المنهج واحداً ، والمؤهلات واحدة ، والنظام واحداً ، ولا معنى للفرقة بينهما حتى فى ساعات العمل .

وفى الحق أننا نستطيع أن ننفع بالمعلم الإلزامى فى جميع نواحي الحياة الثقافية ، والاجتماعية والعمرائية والدينية ، فى القرى المصرية متى خففنا عنه بعض ما يقوم به من أعباء الحصص ، وحفظنا له كرامته الشخصية ، ليكون قدوة لفلاحين فى كل شيء . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

محمد أبو بكر إبراهيم

مفتش بالتعليم ثانوى بوزارة المعارف